تحقيق علمي واستنتاج

الأبيـــوردي ...

ولادته ووفاته

للأستاذ ممدوح حقي

تتجه أكثر عناية مؤرخينا القـــدماء إلى تعيين وفاة من يؤرخون ، وقد يقدرون عمره يوم وفاته أحياناً ولكن ذلك نادر ، أما يوم ميلاده فأقل ما يأبهون له أو يتحرون صدقه . وإنك لواجد كتاب وفيات الأعيان وفوات الوفيات ولكنك لا تجد كتاب ميلادهم غالباً . ومع هذا فإن الاختلاف على سنى الوفاة عظيم جداً قد يبلغ الخطأ فيه أحياناً نصف قرن ، ووفاة أبي المظفر الأبيوردي مثال لهذا الاختلاف بينهم ، فابن خلكان ومن نقل عنه يعينون سنة وفاته في عام ٥٥٧ هـ . وياقوت ومن روى عنه يعينونها في عام ٥٠٧ هـ . ولقد قرأت كل من ترجم للأبيوردي من قدماء ومحدثين مما عثرت عليه مخطوطاً ومطبوعاً ، فلم ألق واحداً تنبه لهذا الاختلاف بله أن يبحثه ويحققه مع طول المسافة بين التاريخين وانفساح مجال البحث فيهما ، فدائرة معارف البستاني وشارح الديوان والزركلي الشاعر في أعلامه من المحدثين يتبعون رأي ابن خلكان ولعلهم نقلوا عنه ساهين سهوة العلماء ، ودائرة المعارف الإسلامية تؤكد رأي ياقوت ، فأيهما الصحيح يا ترى ؟ أو أيهما أقرب إلى الصحة إن شئنا التوفيق ؟!

إن في تحليل الوقائع التاريخية شفاء من هذا الكسل العقلي ، ولنقرأ ديوان الشاعر نفسه ، ونتجه إلى من مدحهم أو اتصل بهم ، فإن تجاوز أحدهم نصف القرن السادس ، فالأبيوردي زميله .

وأكثر قصائد شاعرنا في المقتدي (توفي عام ٤٨٧ هـ) والمستظهر (توفي عام ٥١٢ هـ) ونظام الملك (قتل عام ٤٨٦ هـ) وعميد الدولة (قتل عام ٤٩٣هـ) وسيف الدولة صدقة بن دبيس (قتل عام ٥٠١ هـ) وشيرويه (توفي عام ٥٠٩هـ) .. فهؤلاء جميعاً ، ماتوا حول أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس مما يؤكد

مشروع التقسيم بشدة . فمنهم من نعته بـ (غيتو) يهودي كبير ، ومنهم من قال إن الدولة اليهودية بمقتضاه تكون بمثابة (معتقل) المهاجرين اليهود ! وإن المهاجرين لن يجدوا متسعاً لهم في تلك الرقعة الضيقة ، فيزاحم بعضهم بعضاً ، فيتنغص عليهم عيشهم ، وتتحول دولتهم إلى جحيم لا يطاق ! أما أنصار التقسيم منهم ، فدحضوا هذه المخاوف بقولهم : ستنمو الدولة اليهودية عمودياً لا أفقياً !

فقاطعني والدي قائلا : وما الذي تفهمه بالنمو العمودي لا الأفقي ؟

تلعثمت بالجواب ، واحمر وجهي خجلا ، وقلت : لا أدري!

فقال : عيب عليك أن تتلفظ باصطلاحات وأنت تجهل معناها أأنت ببناء ؟ فالتطور العمودي هي ناطحات السحاب التي تراها اليوم في بعض مناطق الدولة اليهودية المجاورة ، والتي أقامها أصحابها لضيق الرقعة ، وكثرة السكان ... أما التطور الأفقي ، فهو التوسع على حساب الأراضي العربية ، وهذا غير ممكن ، لأنه يؤدي إلى وقوع حرب بين الدولتين ، لن يسمح بها مجلس الأمن الدولي !

وإذ هم والدي بطرح أسئلة مضنية أخرى ، طرق باب الدار ، وكان الطارق السيد عبد الحليم الملاح صاحب جريدة (الكوكب) وكان من عادته أن يسهر ووالدي ويتبادل وإياه أطراف الأحاديث . فرحب به والدي كعادته ، وأجلسه على الأريكة إلى جانبه ، وكان مدار حديثهما أخبار الحدود ، فروى السيد الملاح خبر اكتشاف قوة الحدود العربية نفقاً نقبه اليهود تحت الحدود ، كانوا يهربون منه البضائع المصنوعة في تل أبيب ، وأن مصلحة الجمارك اليهودية القائمة بالقرب من مرج بني عامر أو (إيلك) ، صادرت سلماً عربية غير مجركة ، وأن عربياً حاول الانتقال من يافا إلى تل أبيب بلا جواز سفر ، فاعتقل وظل طيلة يومه في استجواب مستمر ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أثبت للمسئولين أنه يجهل وجود دولة يهودية مجاورة ، وما إلى ذلك من أخبار الحدود المتعاقبة يومياً !

وهنا أخذني النعاس ، واستغرقت في نوم عميق ، تاركا والدي وصديقه يتناوبان أحاديث السهرة ...

نجاتي صدقي

أي ياقوت أن وفاة شاعرنا كانت سنة ٥٠٧ هـ إذ كانوا كلهم معاصريه .

ولو قبلنا رأى ابن خلكان لأضعفه الحساب التالى : نفترض أن الأبيوردى اتصل بالمقتدى — وهو أول خليفة اتصل به الشاعر — وعمره لم يتجاوز الثلاثين ، فيكون عمره يوم وفاته نحو مئة عام ، والمسافة بين رأي ياقوت وابن خلكان نصف قرن لنضبط فكيف أنفقها الشاعر ؟ وبمن اتصل مادحاً أومصاحباً ؟! نحن لا نجد لذلك أثراً فى ديوانه وكله بين أيدينا ، اتفق عليه كل من أرخه بأنه هو نفسه نسقه ونظمه بيده وقسمه إلى فصول ثلاثة سماها : النجديات والوجديات والعراقيات . نعم لا نجد إلا قصيدة واحدة رثى بها الملك أحمد معز الدين المتوفى عام ٥٥٢ هـ[1] يكون عمره يوم نظمها — على الحساب المتقدم — خمساً وتسعين سنة . ولو رجعنا إلى القصيدة ، لوجدنا فيها روح شاب متفلسف روح شيخ هرم وضع قدميه على حافة القبر . فنحن هنا بين أمرين : إما أن نقول بأن القصيدة مدسوسة عليه — وهذا رأى يجوزه النقد — وإما أنها له لكنها قيلت فى إنسان آخر اسمه أحمد عاصره الشاعر . ونحن إلى الرأى الثانى أميل ، لأن روح الأبيوردى ترفرف عليها فى كل مقطع (ولعله أحمد بن مروان صاحب الموصل المتوفى عام ٤٥٣ هـ بعد أن حكم إحدى وخمسين سنة وكان كعبة شعراء زمانه) .

هذا وإن من أوائل من نوه بالشاعر ، تاج الإسلام ابن السمعانى المتوفى عام ٥٦٢ هـ ، وهو ينقل عن شيرويه المتوفى عام ٥٠٩ هـ . ولو قبلنا رأى ابن خلكان لكان معناه أن شيرويه حدد وفاة الأبيوردى قبل سبع وأربعين سنة ، وهل ينقل أن يحدد من سبق نهاية من لحق ؟! ولقد كان السمعانى ثقة لا شك فيه ، نعتقد أن ابن خلكان لم يخطئ ، وإنما جاء الغلط إلى كتابه عن طريق النساخ والكتبة الذين شغلوا من رسالتنا هذه صفحات بتحقيق صغر كوروه فكبروه فرقم خمسة فى العدد !!

ويؤكد هذا الرأى أن الأبيوردى تسلم خزانة الكتب فى المدرسة النظامية بعد الأسفرائينى المتوفى عام ٤٩٨ هـ ، وهذا المنصب لم يكن يتولاه إلا ذو مكانة علمية كبيرة وللسن قيمتها فيه ، ولانعتقد أن الأبيوردى وصل إليه إلا بعد أن اجتاز مرحلة واسعة من عمره تسلح فيها بعلم وفير وظهرت مؤلفاته ونبهت شهرته وانتشر شعره .

إذا تأكد لدينا هذا ، وعرفنا أن الأبيوردى توفى عام ٥٠٧ هـ فى أى سنة ولد يا ترى ؟ وكم كانت سنه يوم وفاته ؟ هـذا ما لم يذكره أحد فلنرجع إلى ديوانه ، ولن نطوف فيه كثيراً حتى نقع على قصيدة يمدح بها الأمير سيف الدولة المتوفى عام ٥٠١ هـ ويصور له فيها آله لبياض شعره إذ ألم الشيب برأسه قبل بلوغه الأربعين فيقول :

أقبل بلوغ الأربعين تسومنى صروف الليالى أن أشيب وأهرما

ونحن نعلم أن سيف الدولة ولى الإمارة مدة اثنتين وعشرين سنة ، فلو فرضنا أنه مدحه سنة توليه الملك أى عام ٤٧٩ هـ لكانت ولادة الأبيوردى عام ٤٣٩ هـ على أبعد تقدير .

غير أنا لا نلبث حتى نرى له قصيدة أخرى يشكر بها الوزير محمد بن منصور المتوفى عام ٤٥٦ هـ فيكون عمر الشاعر يوم نظمها — على حسابنا المتقدم — سبعة عشر عاماً فقط ، وهذا غير معقول إذ لا يحتمل أن تكون شهرته فى هذه السن المبكرة قد بلغت من الذيوع درجة تجعل شرف الدين بن منصور يتبرع تبرعاً جميل يسديه إليه التماساً لشعره وشكره كما يدعى فى القصيدة نفسها إذ يقول :

تبرع بالمعـــروف حتى كأنه يعد اقتناء المال إحدى المثالب

ونحن أميل إلى الظن أنه ولد قبل هذه السنة ، وما وصفه الشيب الذى حدث عنه سيف الدولة إلا حكاية ألم متقدم مزمن ، وأنه حين توفى عام ٥٠٧ هـ كان قد بلغ من العمر طولا مديداً ظهر أثره فى شعره الحكم حين اتصاله بالمقتدى والمستظهر وسيف الدولة وكلهم عاصروه أواخر القرن الخامس .

ممدوح حقى

(١) الديوان ص ٧